المحاضرة الأولى: مفاهيم ومصطلحات عامة حول الحضارات القديمة:

1. **التاريخ والتأريخ والذاكرة الجماعية:** أولا يجب علينا إدراك الفرق بين هذه المصطلحات: التاريخ(history) الذي يعني جملة الأحداث والأخبار الباقية من الأزمان الماضية، أو هو عملية سرد لأهم الأحداث التي وقعت في الماضي، وبين الذاكرة الجماعية la mémoire collective وهي مجرد بناء غير متكامل للماضي وفق ما نريده نحن.

أما التأريخ (historiography): هو استحضار الماضي لدراسته وفهمه وفهم النواميس المتحكمة في سيرورة الطبيعة والإنسان، وله تعريف تقليدي، وهو معرفة الحوادث بأنواعها المختلفة وتسجيلها ودراستها وهو تسجيل التجربة الإنسانية لربطها بالحاضر لاستخلاص الدروس والعبر.

وأدق تعريف هو للتأريخ قد نجده عند لوسيان فابر lucien febre: "ذهو لأجل فهم الماضي لاستخراج السنن و النواميس المتحكمة في سيرورة المجتمع"، وهو أقرب تعريف للنظرة القرآنية للتاريخ لقوله تعالى: "قل سيروا في الأرض فأنظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل...".

ويقسم التاريخ حسب منظومة الفكر الغربية إلى مجموعة من الحقب الزمنية التي تفصل بينها أحداث كبرى كان وقعها كبيرا على العالم كاختراع الكتابة وسقوط روما ...

I. مرحلة ما قبل التاريخ: وتضم ما يعرف بالعصور الحجرية القديم، الأوسط والحديث.
II. المرحلة التاريخية وتقسم إلى ما يلي:

1- حقبة التاريخ القديم L'antiquité: من اختراع الكتابة 3200 ق.م إلى سقوط روما 476م.
2- حقبة التاريخ الوسيط: الفترة الوسيطية (العصور الوسطى) l'epoque (le moyen age) médécentral من سقوط روما إلى سقوط غرناطة 1492م أو فتح القسطنطينية 1453م
3- حقبة التاريخ الحديث moderne: من سقوط غرناطة إلى الثورة الوسطية الفرنسية 1789م.
4- حقبة التاريخ المعاصر Contemporain: من الثورة الفرنسية إلى يومنا.
5- حقبة تاريخ الزمن الحاضر: وهذا قد يخص أكثر العلوم السياسية والدراسات الاستشرافية.

2- مفهوم الحضارة:

لغة: الحضارة في اللغة العربية تعني الإقامة في الحضر، وهي مشتقة من الفعل حضر، وحضر لغة ضد غاب، وعليه فالحضارة لغة تعني الإقامة في الحضر(المدينة) خلافا للبداوة والبادية.

اصطلاحا: للحضارة عدة تعريفات عديدة ومتنوعة ومتطورة عبر مختلف الحقب التاريخية منها، وعليه فالحضارة هي طريقة ونظام اجتماعي يجمع شعبا معينا في إطار صالح للعيش والتواصل والتكاثر

والتفاعل مع البيئة وزيادة الإنتاج وحماية المجتمع وتحسينه، والحضارة عكس البربرية، وتعني حالة شعب بلغ من التطور ما يسمح له باعتماد أنظمة متطورة للحياة وللمجتمع، كما أنها تعكس طرق الحياة والانجازات المادية والفكرية والروحية للمجتمع.

من هذا المنطلق يمكننا أن نقول أن الحضارة: هي ذلك الانتاج البشري الناجم عن صراع، تأقلم، وتفاعل الإنسان مع البيئة المحيطة به في زمن معين وفي منطقة معينة من أجل إحراز التقدم وتطوير المجتمع.

وهذا الإنتاج ذو شقين: شق مادي يتمثل في الأشياء الملموسة والمحسوسة والمرئية مثل فنون العمارة بجميع أنواعها. أما الشق المعنوي فيظهر في الجهد الفكري. وعليه فالحضارة هي مزيج بين الثقافة والمدنية بشكل عام.

وعليه فالحضارة في مفهومها العام هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودًا أو غير مقصود وسوء أكانت هذه الثمرة مادية أو معنوية فالحضارة هي ذلك الكل المركب الذي يشمل اللغة والتاريخ والدين والعادات والتقاليد والمؤسسات والإنجازات والعمران.... في شعب معين ومحدد وكما سبق وذكرنا فالحضارة هي مزيج بين الثقافة والمدنية.

المدنية: فهي ذلك الجهد المادي والتقدم التكنولوجي الذي عرفته وتعرفه المجتمعات المتقدمة.

الثقافة: وهي اكتساب خبرات فردية أو جماعية في مجالات مختلفة فوق المستوى العام وهي معنوية أكثر منها مادية. سنتطرق لمفهومها لاحقا.

العوامل المساعدة على قيام الحضارة القديمة: تتحكم في التكوين الحضاري عوامل ضرورية وحتمية بواسطتها تزدهر الأمم أو تكون سببًا في تخلفها.

- وفرة المياه: باعتبار الماء أساس الحياة فإنه أيضا من العوامل المهمة للبناء الحضاري فمعظم الحضارات القديمة قامت على ضفاف الأنهار وعلى السواحل (مصر، العراق، الهند، الشام، اليونان....)
- خصوبة الأرض: هي عامل أساسي في بروز الحضارات القديمة فمعظم الحضارات القديمة ازدهرت على ضفاف الأنهار والأراضي الخصبة، فتطور الزراعة بدوره يؤدي إلى تطور غيره من الجوانب الاقتصادية.
- المناخ: جل هذه الحضارات القديمة كانت تعيش في المناخ المعتدل لا هو بارد ولا هو حار.

- وفرة المياه والموقع الاستراتيجي: حيث يوفر الموقع فرصة الاتصال ما بين ويكون حلقة وصل ما بين الحضارات اليونان مثلا.
- توفر المعادن: مثل الحديد، الرصاص، الفضة.
- العمل البشـــري: ولد الإنســـان وهو مزود بجوهرة العقل الذي يســـاعد على التغلب على الطبيعة. حيث نجح الإنسان في الاستقرار كمرحلة أولى وإقامة قرى مستقرة في كافة مناطق الشرق الأدنى القديم ثم بدأ في اختراع ما يلزم حياته فاكتشـــف الزراعة وبنى القرى واخترع طرق للمواصـــلات وهكذا انتشرت الحضارات، ويبقى هذا العامل من أهم معايير تفوق حضارة على غيرها.

3- مفهوم الثقافة:

لقد اختلف العلماء حول مفهوم الثقافة ومعناها منذ العصور القديمة حيث أعطوها تعاريف مختلفة ومتباينـة خلال القرون الثلاثـة الأولى من عهـد اليونـان والرومـان وعنـد علمـاء الغرب من فلاســـفـة واجتماعيين، وهذا ما جعلها تتطور منذ ظهورها بهذا المصطلح.

والأوائل الذين استخدموا لفظ "الثقافة" هم الألمان فقالوا "kulter" ومعناها حضارة، وهم أخذوا هذا اللفظ واشـتقوه من اللغة اللاتينية التي تعني "إصـلاح الشـيء وتهذيبه وتهيئته للاسـتعمال" والذين عبروا عليها بلفظ "agriculture" وترجمتها إصلاح الأرض وزراعتها. كما وجدت هذه العبارة في كتب المسيحية بمعنى تهديب الروح.

وفي عصـــر النهضـــة اســـتعملت للدلالة على الأدب والفنون فقيل: ثقافة الآداب الإنســـانية أي culturo bonorum artum ثم استعمل جون لوك (J.loke) هذا المصطلح في معنى "تهذيب العقل أو تهذيب الإنســـان" وقد ارتبط معنى الثقافة عند الرومان بأنها تطلق على اللســـانيات من "أدب ولغة ونحو وفلسفة" ثم أعاد علماء الإجتماع في ألمانيا وفلاسفتها النظر في معنى culture في القرن التاسع عشر حيث قارنوا بين لفظ cultura (الروماني) و kulter وجعلوهما متساويان وعموما يتضمن معناهما العلوم الإنسانية في مقابل العلوم الطبيعية التجريبية.

فثقافة الشـعب هي دم وجوده، وهذا ما ذهب إليه "ماثيو أرنولد" الذي يرى أن الثقافة والتثقيف هي "الوصـــول إلى الكمال الشـــامل ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق العلم والتعلم والإلمام بأحســـن ما في الفكر الإنساني".

أما تايلور (ق19) فقال عنها بأنها: "ذلك الكل المركب الذي يتضمن المبادئ أو العقائد والأخلاق والقوانين والعادات وأي قدرات وخصال يكتسبها الإنسان نتيجة لوجوده كعنصر في المجتمع الإنساني".

أما لينتون فيرى أنها: "تنظيم للسلوك المكتسب ونتائج ذلك السلوك يشترك في مكوناتها الجزئية أفراد من مجتمع معين".

ومن كل ما سبق فكلمة ثقافة أوروبيا استعملت في معاني واسعة إلى غاية النصف الثاني من القرن العشرين أين ظهرت بمعنى جديد هو أن الثقافة تشتمل كل شيء في حياة المجتمع وطريقة حياته ومحيطه القاري ونظرته للحياة وأنها ليست محصورة في طبقة أو مجموعة مختارة، وهي لا تعني فقط تلك المظاهر من السلوك الإنساني المشيرة إلى التهذيب والفنون بل هي مفهوم يعني استعمال كل القيم والنظم المادية والاجتماعية لأي جماعة من الناس.

وفي سنة 1970 عقدت منظمة الأمم المتحدة للثقافة والعلوم ندوة حول موضوع الحقوق الثقافية وتبنيها كحقوق إنسانية درست الثقافة وحددت مفهومها وميادينها ومستقبلها وفق النطاق المذكور سلفا.

أما عند العرب فجاء في قاموس اللغة العربية كلمة "تثقف" أي صار "حاذقا" وتقن الكلام أي حدقه وفهمه بسرعة، وثقَّفه بالرمح أي طعنه وثاقفه أي غالبه بالحدق أو لاعبه بالسلاح وعند العرب دائما يقال ثقّف الرمح أي قومه وسواه وثقّف الولد أي هدبه وعلمه، فالثِقاف آلة يُثقف بها الرمح.

معنى كلمة "ثقافة" في اللغة العربية لا يتطابق مع لفظها في المعنى الغربي الدقيق كما حدد في معناها عند الغرب، إلا أنه يمكن للغات أن تتطور وهذا يعني أنها حيّة بإدخال ألفاظ ومعاني جديدة بعد تطويرها للقالب العربي خاصة أن معنى ثقافة هو معنى جديد في كل اللغات كما رأينا فهي "طريقة المجتمع الخاصة به في الحياة وموقفه وتصوراته تجاه مشاكلها." كما استعمل العرب حديثا لفظ ثقافة للدلالة على التراث الإنساني وعلى تنمية الإنسان الناشئ وتنمية مواهبه ومعارفه.

وفي الثقافة الإسلامية تدل كلمة ثقافة على جملة ما عند الأمة العربية الإسلامية من تراث ديني وروحي وعلمي، فلسفي، أدبي، فني، كما تدل أيضا على العناصر التي يجب على الفرد الذي ينتمي إلى هذه الحضارة أن يلم بها حتى يكون مدركا لثقافة أمته وممثلاً لها وقادرا على حمل رسالتها والإسهام في ترقيتها وتتضمن الثقافة الإسلامية مظاهر شتى يجب على الدارس أو الباحث أن يميز فيها بين الأسس والأصول والجوهر والروح.

4- الأويكومين:

تعبير إغريقي شاع استعماله في العصر الهلينستي من التاريخ الإغريقي بعدما اتسع العالم الهليني الإغريقي، أولا غربًا ثم شرقًا، ومجاله الأصلي كان يمتد عبر الإيجي، وقد وصل امتداده غربا إلى سواحل الأطلسي في أوروبا وشمال غرب إفريقيا وإلى بريطانيا الحالية، وامتداده الشرقي الذي تلا ذلك وصل إلى أواسط آسيا والهند، وكان فتح الإسكندر لفارس وقضاءه على الإمبراطورية الفارسية الأولى هو الذي مهد

السبيل للامتداد الشرقي وبعد زمن الإسكندر شاع استعمال هذا المصطلح ومعناه الحرفي "الجزء المسكون" من العالم، ولكن الاغريق الذين وضعوا الكلمة ونشروها حصروا معناها عمليًا، في الجزء المسكون من العالم الذي كانت تقيم فيه المجتمعات المسماة "متمدنة" حيث شملت فقط المدنيات المجاورة أو التي سمعوا بها منذ عهد هيرودوت دون البربريات المجاورة لهم حسب وصفهم، أو البعيدة عنهم، ويقابل مصطلح الأويكومين عن الإغريق قول الصينيين "جميع ما هو تحت السماء".

أما فيما يتعلق بمدنيات أمريكا الوسطى والأنديز فلم تكن معروفة آنذاك، وعليه فإن مصطلح الأويكومين بمعنى مستوطن البشرية أوسع بكثير من رقعة العالم المتمدن آنذاك الذي عرفه الإغريق والرومان.

وهذا ما يعني أن هذا المصطلح يحدد موطن البشرية المتغير من فترة لأخرى مع تغير حدود اليابسة جراء التبدلات المناخية والطبيعية التي يمكن للإنسان تعديلها (مثل تحول البحر إلى صحراء. صحراء إفريقيا). وعليه فشكل الأويكومين الحالي تحدد منذ نحو 10.000– 12.000 سنة ق.م.

للاستزادة أنظر ما يلي:

- **أولا. القرآن الكريم: سورة الروم، الآية 42.**
- **ثانيا: المراجع:**

1- **ول ديورانت: قصة الحضارة، المجلد الأول، تر. فؤاد أندروس، علي أدهم، دار الجيل، بيروت، د.ت.**
2- **ف. دياكوف، س. كوفاليف: الحضارات القديمة، ج. 1، تر. نسيم واكيم اليازجي، ط. 1، دار علاء الدين، دمشق، 2000.**
3- **ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت لبنان، د.ت.**
4- **رمضان عبده علي: تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته، ج. 1، ط. 1، دار نهضة الشرق، مصر، 2002.**
5- **عبد اللطيف أحمد علي: محاضرات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، طبع كريديه أخوان، بيروت، 1971.**
6- **محمد صادق صبور: موجز تطور الحضارات الإنسانية، ط. 1، دار الأمين، القاهرة، 1998.**